المستقبل العربي

٢٣٣

٧/١٩٩٨

● نحو بناء نظام عربي جديد/ طاهر المصري

● العلاقات العربية ـ الآسيوية/ محمد السيد سليم

صناعة القرار في الولايات المتحدة والعلاقات العربية ـ الأمريكية (حلقة نقاشية):

ورقة العمل/ فواز جرجس

حلقة النقاش/ بهجت قرني

سيد شلبي ـ مصطفى علوي ـ منار الشوربجي

ناصيف حتي ـ هشام بدر

● الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط/ عبد النبي اصطيف

● الإدراك الذهني لخارطة الوطن العربي/ حسين الريماوي

● الإسلام في فرنسا/ رابح الصادق

● مؤتمرات:

ـ تقرير عن ندوة إنشاء مؤسسة عربية للترجمة

ـ تقرير عن ندوة إشكالية التواصل الحضاري بين الشرق والغرب

● ألف إحصائي: إحصاءات الثقافة والاتصال في الوطن العربي

● كتب وقراءات ● يوميات ● ببليوغرافيا

يصدرها "مركز دراسات الوحدة العربية"

الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط: عولمة دراسات المنطقة

عبد النبي اصطيف

عضو هيئة التدريس في كلية سانت انتوني، جامعة اكسفورد، وأستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث، جامعة دمشق.

مقدمة

ثمة ما يشبه الإجماع بين دارسي الاستشراق ومؤرخين في العالم الأنكلو ـ أمريكي على أن الإسهام الأمريكي في تطور هذا التقليد الثقافي الغربي، وبخاصة في جانبه الأكاديمي والبحثي، قد بدأ بالفعل مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية «عندما وجدت الولايات المتحدة نفسها في الموقع الذي كانت بريطانيا وفرنسا قد أخليتاه منذ عهد قريب»[١]، على حد تعبير ادوارد سعيد. ولكن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بالشرق تعود بالتأكيد إلى تاريخ أسبق بكثير من منتصف القرن الحالي. ولربما لا يبالغ المرء عندما يشير إلى أن هذه العلاقة قد بدأت مع بداية حركة الاستيطان نفسها. فمنذ البداية «اعتبر المهاجرون إلى العالم الجديد أنفسهم شعباً مختاراً، واعتبروا أمريكا أرض الميعاد»[٢]. وقد اتخذ هذا المفهوم بتحقق الاستقلال عن التاج البريطاني مظهراً واقعياً فعلياً، وغدت الدولة الجديدة مملكة الله الرمزية. (وقد يكون هذا من أسباب عمق العلاقة الاستراتيجية القائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية ودولة إسرائيل. ففي منظور كل منهما لنفسه يبدو التماهي جدّ طبيعي بينهما)[٣]. ومع ذلك فقد استمر تواصل الكيان الجديد ثقافياً ومعرفياً مع الغرب الأوروبي، وبالتالي مع استشراقه الذي ازدهر منذ نهاية القرن الثامن

---

(١) ادوارد سعيد، **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١)، ص ٢٩٠.

(٢) انظر: Fuad Sha'ban, *Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America* (Durham, NC: Acorn Press, 1991), p. viii, and chap. 7, pp. 141-176.

(٣) ربما كان من الشائق أن نذكر في هذا السياق أن إدوارد سعيد قد كتب مؤخراً: «إن النقطة الرئيسية في الايديولوجية الأميركية هي أن الأميركيين شعب «جديد»، أي أنهم أفراد جاؤوا بالضبط للتخلي عن هوياتهم الأصلية والحصول على هوية جديدة. وكانت أسطورة الهجرة إلى أميركا قامت على أن كل أميركي جديد هو مثل آدم وحواء، أي أنه شخص تخلى عن ماضيه لكي يشارك في ما تقدمه «بلاد الله» أو «إسرائيل الجديدة» أي أميركا لمواطنيها من ثروات وفرص لا محدودة». انظر: إدوارد سعيد، «قضية مادلين أولبرايت،» **الحياة**، ١٩٩٧/٣/٦، ص ١٧.

عشر. والحقيقة أن الاستشراق الأوروبي ظل باستمرار أرضية ومؤثراً مهيمناً جداً في علاقة الأمريكيين بالشرق، وربما ورثوا عن هذا الاستشراق مواقفهم العدائية تجاه الشرق والشرقيين(٤).

ولكن الأمريكيين، من ناحية أخرى، كانت لهم تجربتهم الخاصة المتميزة في الانشغال بالشرق، والتي أسهمت بدورها في صعود الاستشراق الأمريكي الذي رافق تنامي الحضور الأمريكي في مختلف وجوه الحياة الشرقية، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً. ويمكن للمرء على سبيل الإجمال أن يذكر:

١ ـ الحرب الطويلة التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية مع دول الشمال الأفريقي، وما رافقها من تأثيرات في الاقتصاد، والسياسة الأمريكية، والتجارة الخارجية، والعلاقات الأمريكية الأوروبية، فضلاً عن قضية احتجاز البحارة والمسافرين الأمريكيين وما حفزت من إنتاج أدبي أمريكي يرصد معاناتهم في الأسر، والعلاقة بين الشرق من جانب والأمريكي من جانب، آخر على المستويين الثقافي والاجتماعي(٥).

٢ ـ العلاقات الدبلوماسية والتجارية التي أقامتها الولايات المتحدة منذ نهاية القرن الثامن عشر وسعت إلى تطويرها في ما بعد الامبراطورية العثمانية وولاياتها المطلة على المتوسط بغرض حماية التجارة البحرية الأمريكية.

٣ ـ تنامي النشاط التجاري البحري مع دول المتوسط بعامة، والشرقية منها بخاصة، بعد أن مهدت نتيجة الحرب لحرية الملاحة أمام الأسطول التجاري الأمريكي.

٤ ـ زيارة أعداد كبيرة من الأمريكيين للشرق(٦) بغرض الاستجمام، أو الاستشفاء، أو العمل، أو الكتابة.

٥ ـ النشاط التبشيري الواسع في أقطار الشرق العربي وما رافقه من جهود تعليمية وصحية، وبخاصة في ساحل بلاد الشام والأراضي المقدسة، تتوجت بإقامة جامعات أمريكية في لبنان، ومصر، وتركيا، إلى جانب إنشاء المؤسسات الثقافية والإعلامية ومراكز البحوث(٧).

٦ ـ الهجرات العربية المتلاحقة للولايات المتحدة بدءاً من مطلع النصف الثاني من القرن

---

(٤) انظر: سعيد، **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ص ٢٩٠.

(٥) انظر: Robert J. Allison, *The Crescent Obscured: The United States and the Muslim World, 1776-1815* (New York: Oxford University Press, 1995), and Sha'ban, *Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America*, chap. 4, pp. 65-82.

(٦) انظر: Sha'ban, Ibid., chap. 6, pp. 115-140.

انظر أيضاً ما كتبه مروان عبيدات حول الرحالة الأمريكيين في الشرق في القرن التاسع عشر، في:

Marwan M. Obeidat, «Lured by the Exotic Levant: The Muslim East to the American Traveler of the Nineteenth Century,» *Islamic Quarterly*, vol. 31, no. 3 (1987), pp. 167-193, and

مروان عبيدات، «جون روس براون: نموذج أميركي من القرن التاسع عشر لأدب الرحلات الاستشراقي»، **الفكر العربي**، السنة ٩، العدد ٥١ (حزيران/يونيو ١٩٨٨)، ص ١٩٩ ـ ٢٠٥.

(٧) انظر: Sha'ban, Ibid., chap. 5, pp. 83-114, and Adele L. Younis, *The Coming of the Arabic-Speaking People to the United States*, edited by Philip M. Kayal (Staten Island, NY: Center for Migration Studies, 1995), esp. chap. 2, pp. 37-49, and chap. 3, pp. 50-78.

الماضي[٨]، ومشاركة الجالية العربية في عملية إنتاج المعرفة المتصلة بالشرق، وبخاصة في برامج الدراسات الشرق الأوسطية (فيليب حتي ودوره الريادي في جامعة برنستون مثال واضح مبكر على هذه المشاركة).

٧ ـ الاستلهام الأدبي والفني للشرق والذي حفزته ترجمات **ألف ليلة وليلة** وغيرها[٩]، وكتابات الرحالة عن مشاهداتهم في الشرق، وزيارات الأدباء الأمريكيين للشرق (هرمن ملڤيل[١٠] ومارك توين[١١] وواشنطن إيرفنغ[١٢] وإدغار ألن بو[١٣] وناتانييل هاوثورن[١٤]، وإميرسون[١٥]، والتجاوزيون، أمثلة بارزة على استلهام الشرق وثقافته في الأدب الأمريكي).

٨ ـ تنامي العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية مع مختلف الدول العربية وغيرها في منطقة الشرق الأوسط، وبخاصة في الفترة التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية.

٩ ـ انتقال أو هجرة العديد من كبار المستشرقين الأوروبيين[١٦] إلى الولايات المتحدة الأمريكية، مما عزز فاعلية النشاط الاستشراقي الأمريكي (غيب، غوستاف فون غرنباوم، بييركاكيا، روجر ألن، روجر أوين وغيرهم).

وقد تمثل الإسهام الأمريكي في الدراسات الاستشراقية في تحول هذا التقليد الثقافي على يد المستشرقين الأمريكيين من فرع فقه لغوي (Philological) جوهرياً، ومن إدراك عام للشرق، إلى تخصص من تخصصات العلوم الاجتماعية[١٧]. وكان هذا التحول تدريجياً ومتنامياً غذاه

---

(٨) انظر: «A Bibliographic Guide to Arab-American Studies,» in: Younis, Ibid., pp. 305-338, and Barbara C. Aswad, «Arab Americans, Those Who Followed Columbus,» *Middle East Studies Association Bulletin*, vol. 27, no. 1 (July 1993), pp. 5-22.

(٩) انظر: Sha'ban, Ibid., chap. 9, pp. 177-194.

(١٠) انظر: Herman Melville: *Clarel: A Poem and Pilgrimage in the Holy Land*, edited by Harrison Hayford [et al.]; historical and critical note by Walter E. Bezanson (Evanston: Northwestern University Press; Chicago, IL: Newberry Library, 1991), and *Journal of a Visit to Europe and the Levant, October 11, 1856-May 6, 1857*, edited by Howard C. Horsford (Westport, CT: Greenwood Press, 1976; 1955);

هرمان ملفل، **موبي ديك** (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٩٦٥)؛ ط ٢ (بيروت: دار ناصر، ١٩٨٠). انظر أيضاً: إحسان عباس، «الأثر الإسلامي في قصة موبي ديك،» في: إحسان عباس، **من الذي سرق النار: خطرات في النقد والأدب**، جمعتها وقدمت لها وداد القاضي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ٤٤٣ ـ ٤٥٣.

(١١) انظر: Mark Twain, *Innocents Abroad* (1869).

(١٢) انظر: Marwan M. Obeidat, «Washington Irving and Muslim Spain,» *International Journal of Islamic and Arabic Studies*, vol. 4, no. 1 (1987), pp. 27-44.

(١٣) انظر على سبيل المثال قصيدتيه «الأعراف» و«إسرافيل» اللتين يتخذ لهما عنوانين إسلاميين عربيين.

(١٤) انظر: Luther S. Luedtke, *Nathaniel Hawthorne and the Romance of the Orient* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1989).

(١٥) انظر: Marwan M. Obeidat, «Ralph Waldo Emerson and the Muslim Orient,» *Muslim World*, vol. 78, no. 2 (1988), pp. 123-145.

(١٦) انظر: سعيد، **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ص ٢٩٥، ومازن بن صلاح مطبقاني، **الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس** (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥)، ص ٥٢.

(١٧) انظر: سعيد، المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

الشعور بضرورة احتواء الشرق معرفياً حتى تسهل، فيما بعد، عملية احتوائه سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً.

وعلى خلاف المستشرق الأوروبي التقليدي الذي كان يبدأ عادة بتعلم العديد من لغات الشرق، ومن ثم يستخدمها في دراسة النصوص ليصل إلى مختلف الحقائق المتصلة بجوانب الحياة الشرقية، نجد المستشرق الأمريكي يبدأ من معرفته المتخصصة بواحد من العلوم الاجتماعية أو العلوم الإنسانية ومن تدريبه النوعي في هذا العلم، ليطبق علمه ومعرفته على الشرق، محاولاً في أثناء ذلك أن يكتسب معرفة باللغة المعنية من أجل مراجعة النصوص الشرقية التي تمده بالمعرفة المحلية، أو بغرض الحصول على بعض المعطيات من خلال الدراسات الميدانية. وقد يبدو هذا غريباً بعض الشيء، ولكن دراسة اللغة في ترتيب الأشياء النابع من العلوم الاجتماعية تمثل مجرد أداة لغايات أسمى[١٨] هي فهم طبيعة الحياة الإنسانية المدروسة بمختلف وجوهها في مكان وزمان معينين. وقد أدى هذا بدوره إلى التركيز على مقولة «دراسات المنطقة» (Area Studies) أو ما يعرف أحياناً بـ «الدراسات الإقليمية» (Regional Studies) التي نجحت في ما يبدو، وإلى حد واعد، بأن تجمع بين اللغة والأدب، والتاريخ والفلسفة، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة، والاقتصاد، وعلم النفس، وتقاليد بحثية أخرى ذات صلة من أجل الحصول على تفسير شامل لمنطقة جغرافية محددة[١٩]، وعززت بذلك المقاربة المتداخلة المعارف (Interdisciplinary Approach) في دراسة أي منطقة من مناطق العالم الخارجي.

وهكذا جرى تقسيم العالم المحيط بالولايات المتحدة الأمريكية إلى وحدات جغرافية تتناول بالدرس والتحليل من مثل «الشرق الأوسط»، و«الشرق الأقصى»، و«أمريكة اللاتينية»، و«أوروبا الشرقية» و«جنوب شرق آسيا» وغيرها. وانعكس هذا التقسيم على إقامة مراكز البحوث وأقسام الجامعات الاقليمية المختصة، مثلما انعكس على نشر الدوريات، وسلاسل الكتب، وتأسيس الجمعيات والروابط المهنية، واستحداث الجوائز والمنح، وعقد المؤتمرات الدورية، وغير ذلك من المظاهر التي شهدت ازدهاراً ملحوظاً في مختلف الولايات المتحدة الأمريكية منذ الخمسينيات. ويبدو أن هذا الازدهار كان أبرز عوامل تشجيع الأوروبيين من دارسي الشرق على الاقتداء بالولايات المتحدة، واستلهام تجاربها في إقامة المؤسسات وفقاً للوظائف التي ينبغي أن تؤديها في المجتمعات الأوروبية، وبخاصة في علاقاتها مع الشرق في مختلف الجوانب. وحسب المرء أن يشير هنا إلى «رابطة شمالي أمريكة لدراسات الشرق الأوسط» (Middle East Association of North America)، التي تأسست عام ١٩٦٦، ونظيرتها البريطانية المعروفة بـ «الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط» (British Society for Middle Eastern Studies)، التي أنشئت عام ١٩٧٣، وإلى باقي الجمعيات والروابط الأوروبية: الفرنسية المعروفة بـ «الرابطة الفرنسية لدراسة العالمين العربي والإسلامي» (L'association Française pour L'étude du monde Arabe et Musulman)، والسويسرية، والألمانية، والإسبانية، والنرويجية، وغيرها، والتي شكلت في ما بعد «الرابطة الأوروبية لدراسات الشرق الأوسط» (European Association for Middle Eastern Studies)، التي ظهرت إلى النور عام ١٩٩٠، ويرأسها

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(١٩) انظر: Kenneth Prewitt, «Presidential Items,» *Items* (Social Science Research Council, New York), vol. 50, no. 1 (March 1996), p. 15.

دريك هبوود (Derek Hopwood)، مدير مركز الشرق الأوسط، التابع لكلية سانت أنتوني، في جامعة أكسفورد.

ولكن عدوى «العولمة» (Globalization)[٢٠] التي انتشرت في كل ما يتصل من تفكير في العلاقات الدولية منذ نهاية حرب الخليج الثانية التي أعلنت ولادة النظام العالمي الجديد[٢١]، باتت تهدد اليوم دراسات المنطقة التي توسم فيها دارسو الشرق الأوسط الخير سبيلاً للخروج من أزمة الدراسات الشرق أوسطية بخاصة، والدراسات الاستشراقية بعامة، هذه الأزمة التي باتت واضحة وضوح الشمس بعدما أفصح الصبح لكل ذي عينين على يد ناقد الاستشراق الأكبر إدوارد سعيد منذ أن بدأ عام ١٩٧٨ بنشر كتبه المتعلقة بتمثيل الآخر ودراسة ثقافته، والتي تشمل كلاً من **الاستشراق** (١٩٧٨) **وقضية فلسطين** (١٩٧٩) **وتغطية الإسلام** (١٩٨١)، **ولوم الضحايا** (١٩٨٨)، **والثقافة والإمبريالية** (١٩٩٣).

وإدوارد سعيد الذي تحدث بشيء من تفاؤل عن محاولات واعدة لتجريد الدراسات الاقليمية أو دراسات المنطقة من استعماريتها[٢٢] (محاولات أنور عبد الملك، مجموعة هَلْ (Hull) للدراسات الشرق أوسطية، مكسيم رودنسون، جاك بيرك، روجر أوين، ايف لاكوست، نعوم تشومسكي، ومشروع بحوث الشرق الأوسط ومعلوماته ـ ميريب ـ (The Middle East Research and Information Project)) بات يخاف اليوم من هذه العولمة التي ليست في حقيقة الأمر غير «نظام امتدت نخبة مالية صغيرة من خلاله بسلطانها ليشمل العالم كله، مضخمة أسعار البضائع والخدمات، ومعيدة توزيع الثروة من القطاعات ذات الدخل المنخفض (في العالم غير الغربي عادة) إلى القطاعات المرتفعة الدخل».

وإدوارد سعيد ليس الوحيد في خوفه من هذا الخطر، فها هو روجر أوين (Roger Owen)، أحد أبرز نقاد الاستشراق منذ ما يقرب من ربع قرن، يقرع ناقوس الخطر الذي يتهدد حقل الدراسات الاقليمية، ومن بينها منطقة الشرق الأوسط، بانتكاسة خطيرة، ربما لا يبرأ منها. والحقيقة أن روجر أوين، الذي يشغل اليوم منصب أستاذ تاريخ الشرق الأوسط، ومدير مركز هارفرد لدراسات الشرق الأوسط، ليس جديداً على ميدان التفكير في أوضاع الدراسات الاستشراقية، فقد عمل منذ أكثر من ربع قرن على التنبيه على ما تنطوي عليه من أهواء ومغالطات وأشكال شتى من القصور المنهجي والعلمي، وسعى إلى بث روحه الناقدة في أجيال عديدة من دارسي الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. كما جهد من خلال مراجعاته النقدية لمؤلفات المستشرقين التقليديين (غيب، على سبيل المثال)، وتحريره (بالاشتراك مع مجموعة هَلْ Hull) لـ **مجلة دراسات الشرق الأوسط** *(Review of Middle East Studies)* (١٩٧٦) من أجل زعزعة سلطان الاستشراق القديم وإنزاله من برجه العاجي المتغطرس ووضعه في غربال النقد الكاشف عن الشرخ الذي يعتور منظوره والذي تحدث عنه سعيد في

---

(٢٠) من أجل الاطلاع على تاريخ هذا المفهوم وأهميته، انظر: Malcolm Waters, *Globalization* (London; New York: Routledge and Kegan Paul, 1995).

(٢١) Noam Chomsky, «The US in the Gulf Crisis,» pp. 26-28, and Haim Bresheeth, «The New World Order,» pp. 243-256, in: Haim Bresheeth and Nira Yuval-Davis, eds., *The Gulf War and the New World Order* (London: Zed Books, 1991).

كتبه. وكثيراً ما تصدى روجر أوين لعتاة المستشرقين التقليديين من أمثال برنارد لويس[٢٣] وغيره، ووضعهم تحت مجهر نقده المنهجي المستلهم من تطورات العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة، وأظهر بؤس نتاجهم البحثي وحدوده القاتلة. وعندما انتقل إلى جامعة هارفرد حمل معه رؤيته الناقدة إلى معقله الجديد، متابعاً فيه رسالته النبيلة في ضرورة توظيف المعرفة في خدمة الإنسان وعلاقاته ومستقبله.

وربما يحسن بالمرء أن يذكر، في هذا السياق، أن روجر أوين كان واحداً من أبرز مشجعي إدوارد سعيد في مشروعه عن الاستشراق وتمثيل الآخر ودراسة ثقافته. وهو ما أشار إليه سعيد نفسه في مقدمة كتابه **الاستشراق**[٢٤]. كما عدّ سعيد كتاباته في التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط من المصوِّبات القيمة الناجعة في الدراسات الشرق أوسطية، وبخاصة في استحضارها للعلوم الإنسانية المعاصرة، وامتحانها الذاتي المستمر لمناهجها، واستجابتها الحساسة لمادتها المدروسة[٢٥].

يشير روجر أوين في مقالته التي نشرت صحيفة **الحياة** (لندن) ترجمتها تحت عنوان «عولمة الدراسات الاقليمية في أميركا: أسلوب جديد يتناول العالم على أساس إقليمي»[٢٦]، إلى أن الجامعات الأمريكية تنوء اليوم بالضغط الذي يستهدف إجبارها على إعادة تنظيم الطرق التي تدرس فيها العالم الخارجي. فالعولمة التي تعني «عزو أهمية أكبر للتيارات الدولية منها للتيارات الإقليمية» هي الكلمة الرائجة اليوم في إنشاء صانعي السياسة الأمريكية في واشنطن الذين تغير منظورهم اليوم بعد أن غدت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة. ومن الضروري أن يمتثل الآخرون لهذا التغير ويستجيبوا له، وذلك بالتفكير بـ «الآخر»، والنظر إليه، ودراسة شؤونه على نحو يعكس هذا التغير في المنظور، وينسجم وتصورات هؤلاء الصانعين عن عالم ما وراء الحدود الأمريكية. وسرعان ما يجد المرء الجميع يتحدثون بصوت واحد تقريباً: ابتداءً من القائمين على السياسة الخارجية في العاصمة الأمريكية، وانتهاءً برؤساء أقسام الدراسات الإقليمية، ومروراً برؤساء الوكالات الاتحادية، والمؤسسات الخاصة الممولة للأبحاث، ورؤساء الجامعات، ومدراء مراكز الأبحاث الخاصة والعامة والحكومية، وكل من له علاقة بدراسة العالم الخارجي.

وهكذا رأينا كنيث برويت (Kenneth Prewitt)، الرئيس الجديد لمجلس نيويورك لأبحاث العلوم الاجتماعية ـ وهو المجلس الذي كان حتى السنة الماضية (١٩٩٦) ينظم برامجه ومنحه على أساس إقليمي من خلال مجالس فرعية يعنى كل منها بمنطقة محدودة من العالم ـ يدعو إلى إعادة ترسيم حدود الدراسات الدولية. ويكتب شارحاً مفهومه لها: «إن المقصود بإعادة ترسيم حدود الدراسات الدولية هو إعادة تصور أشكال المعرفة الاجتماعية التي تنبثق عن دراسة المكان. فالمسوغ الفكري لمعرفة المنطقة (Area Knowledge) لم يعد مهمة مساعدة مجتمع ما (الولايات المتحدة) على فهم المجتمع «الآخر الأجنبي» (The Foreign Other)

---

(٢٣) انظر: روجر أوين، «رسالة إلى التحرير»، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، و«بيرنارد لويس يرد»، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ في: محمد أركون [وآخرون]، **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه**، ترجمة وإعداد هاشم صالح (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٤).

(٢٤) انظر: سعيد، المصدر نفسه، ص «تنويهات».

(٢٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

(٢٦) انظر: **الحياة**، ١٨/١١/١٩٩٦، ص ١٨.

وحسب. إنه الآن المهمة الأدق في فرز الطرق التي يتداخل فيها العالمي والمحلي في عالم متغير من المختلفات.

«وهذه المهمة تتطلب معرفة المنطقة، ولكنها تتطلب أيضاً المقارنة عبر المناطق. إنها تتطلب أدوات وتقنيات تساعد الباحث على الربط ما بين التجربة المحلية والسياقات الأوسع، ومعالجة التجربة المحلية بوصفها الأساس من أجل إنشاء النماذج (Models)، وبناء الفرضيات، واختبار النظرية»(٢٧).

وبعبارة أخرى، إن معرفة المنطقة لم تعد كافية، ولا بد من تطويرها على نحو يستجيب للتغيرات التي يشهدها عالمنا المعاصر مما يحتم البحث عن مفاهيم فكرية جديدة، مثلما يتطلب طرقاً جديدة لتنظيم البحث العلمي عن العالم الخارجي. وهكذا وجد «المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية»، و«مجلس نيويورك لأبحاث العلوم الاجتماعية» أنه من المفيد تصورياً «التمييز ما بين دراسات المنطقة التقليدية من جهة، والمعرفة القائمة على المنطقة (Area-based Knowledge)»(٢٨). وقد تبين للمجلسين أن دراسات المنطقة التقليدية قد اتخذت من الأقاليم (Regions) أو المناطق بكلياتها الوحدة الرئيسية لتحليلاتها. وأن يكون المرء دارساً للمنطقة معناه: «المشاركة في مشروع يسعى إلى معرفة كل ما يمكن معرفته على نحو معقول عن منطقة من مناطق العالم ـ عن لغاتها، وتاريخها، وثقافاتها، وسياساتها، وأديانها»(٢٩)، أي أن دراسات المنطقة التقليدية هي أساساً «**معرفة عن المنطقة**». وهي في هذا تختلف عن «المعرفة القائمة» على المنطقة التي تبدأ بـ «المعرفة عن منطقة ما، ولكنها بعدئذٍ تطبق تلك المعرفة على عمليات، واتجاهات، وظواهر تتجاوز أية منطقة معطاة»(٣٠).

والمجلسان يؤسسان هذا المفهوم على مقدمة عمل فحواها أن المناطق ـ ابتداءً من القرى البعيدة وانتهاءً بالقارات بكاملها ـ أسرى عمليات تربطها بالأحداث، «وأنها، وعلى الرغم من كونها متباعدة جغرافياً، جد قريبة بعضها من بعض ثقافياً، أو اقتصادياً، أو استراتيجياً، أو بيئياً. وتعلُّم المزيد والمزيد عن القيم أو الشروط الاجتماعية في منطقة محددة، يعني بعدئذٍ تعلم المزيد والمزيد عن كيفية توضع تلك المنطقة ضمن أحداث تمضي إلى ما وراء حدودها الجغرافية، ولكنها ليست بالتالي خارج ثقافتها، أو اقتصادها، أو بيئتها»(٣١).

«إننا نستعمل مصطلح «المعرفة القائمة على المنطقة» لنشير إلى مشروع بحثي يفسر ويشرح الطرق التي يحدد فيها ما هو عالمي وما هو محلي كل منهما الآخر»(٣٢). هذا هو مربط الفرس كما يقولون في المفهوم الجديد كما يشرحه أهم مجلسين معنيين بدراسات العالم الخارجي. ولكن هل ثمة أي جديد فيه؟

---

(٢٧) انظر: Kenneth Prewitt, «Presidential Items,» *Items*, vol. 50, nos. 2-3 (June-September 1996), pp. 32-33.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٢.

يعلق روجر أوين على هذا الطرح بأنه بدهية مكرورة. بالتجربة الاستعمارية، مثلاً، لا يمكن فهمها إلا من خلال دراسة خليطها المعقد، وتبين العلاقة الشائكة بين القوى المحلية والقوى الدولية(٣٣). ولكن التركيز المسرف على العمليات والتيارات والظواهر الأكبر التي تتجاوز المناطق المنفصلة هو ما يبعث على القلق، ويثير بدوره جملة من التساؤلات.

فهل الهدف من دراسة منطقة من المناطق فهم الجوانب المختلفة المتصلة بها من أجل النهوض بأوضاعها وأوضاع سكانها، والمساعدة على تنمية علاقات سليمة بينها وبين المناطق الأخرى في العالم، أم أن الهدف هو اتخاذ هذا الفهم متكأ لدراسة العمليات والتيارات الكبرى التي تنتظمها مع غيرها من المناطق؟

وكذلك من الذي يحدد ما هو محلي لا يتجاوز في أهميته منطقته الخاصة به، وما هو محلي ولكنه يتجاوز في أهميته أو دلالته هذه المنطقة، ويمكن أن يشكل مع غيره ظاهرة أكبر ذات صلة بمناطق العالم الأخرى؟

وهل دراسة المحلي هي مجرد خطوة أولى، أو مجرد وسيلة، من أجل دراسة العالمي؟

وفوق هذا وذاك وذلك ما مقدار الأهمية التي يمكن أن يعزوها الباحث لمنظور الداخليين ورؤيتهم لما هو محلي، بالقياس إلى الأهمية المفردة لمنظور الخارجيين ورؤيتهم لهذا المحلي؟ وبعدها ما المحلي؟ وما العالمي؟ ومن وجهة نظر من؟ هل العالمي ما يراه سكان منطقة ما عالمياً، أم أن العالمي هو ما يراه سكان المناطق الأخرى، أو صانعو القرار السياسي في منطقة أخرى، وبالتحديد من يقيمون في مراكز الثقل الاقتصادي والعسكري والسياسي في الغرب؟ تقول الناقدة والمثقفة الهندية الأصل، وأستاذة العلوم الإنسانية في جامعة كولومبيا غاياتري شاكرافورتي سبيڤاك: «العولمة (Globalization) في الواقع كلمة تبرئة (Alibi) لتغطية الأمركة (Americanization). وإذا ما فُهمت أمريكة على أنها القوة المهيمنة في ثلاث وكالات عبر قومية رئيسية (صندوق النقد الدولي، والبنك العالمي، والغات التي حلت محلها الآن منظمة التجارة العالمية)، وإذا ما سميتها بالعولمة، فإنها تصبح، ولسبب وجيه، شيئاً حسناً»(٣٤).

وأخيراً، ماذا عن صلة المحلي بالعالمي؟ يبدو أن الأمر لن يتجاوز النظر إلى المحلي على أنه مجرد تابع ينبغي أن يتكيف مع ما هو عالمي في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والتربية والفن وجميع وجوه الحياة، وأن المحلي لن يكون في نهاية المطاف غير طرف منفعل بينما الطرف الفاعل لن يكون غير الولايات المتحدة الأمريكية.

مهما كان الأمر، فإن عدوى العولمة ماضية في انتشارها، وها هو رئيس جامعة هارفرد العريقة نيل رودنستاين (Neil L. Rudenstine) يتحدث في معرض تسويغه للأهمية التي يسندها إلى مجمّع الجامعة الجديد للدراسات الدولية والذي تخطط جامعة هارفرد لإقامته: «تَعِدُ هذه السنة بأن تكون سنة مهمة على نحو خاص بالنسبة للدراسات الدولية في هارفرد. فالخطط في مرحلة التشكل من أجل مجمّع جديد ـ مؤسس ضمن كلية الآداب والعلوم، ولكنه مرتبط من الناحية الفكرية بأجزاء أخرى من الجامعة ـ سوف يساعد على إيجاد صلات أوثق ما بين

---

(٣٣) روجر أوين، «عولمة الدراسات الاقليمية في أمريكا...»، الحياة، ١٨/١١/١٩٩٦، ص ١٨.

(٣٤) انظر مقابلة بيتر أوزبورن لها في: Peter Osborne, ed., *A Critical Sense: Interviews with Intellectuals* (London; New York: Routledge and Kegan Paul, 1996), pp. 163-177 and esp. p. 166.

مختلف المراكز والبرامج المركّزة على الشؤون الدولية.

«إن «العولمة» (Globalization) مصطلح يستعمل بإسراف هذه الأيام. ومع ذلك فإن من الواضح أن للعديد من القضايا الكبرى في الحياة الحديثة أبعاداً عبر إقليمية (Transregional). وسواء أكان الموضوع يتعلق بانبثاق العديد من الديمقراطيات الجديدة وهشاشتها، أم بالتفاعل بين الحركات الدينية المنبعثة والسياسة في أجزاء مختلفة من العالم، أم بالتوتر بين حماية البيئة والتنمية الاقتصادية، أم بسيادة أشكال من الصراع متصلة بالعرقية أو العرق (Race) في العديد من المجتمعات، فإن لدينا الكثير مما نتعلمه من الدراسات المقارنة التي تستطيع أن تساعدنا على رؤية أنساق عبر الحدود الأكاديمية والجغرافية التقليدية.

«وإذ يمثل هذا في الذهن، فإننا ننتظر إيجاد مجمّع من التسهيلات الجديدة والمجددة سوف تصل ما بين العديد من مراكز هارفرد القائمة وبرامج الدراسات الدولية. لقد خطت الجامعة في أثناء السنوات الثلاث الماضية خطوات واسعة ومعتبرة على جبهات متعددة: ومن ضمن أشياء أخرى، هناك تأسيس مركز ديفيد روكفلر للدراسات الأمريكية اللاتينية، ووقف مركز كاثرين، و. شيلبي كلوم ديفيز للدراسات الروسية، وتوسيع معهد كوريا، وإيجاد كل من مركز رينالدف. لويس للقانون الدولي، ومركز للدراسات القضائية الإسلامية (في مدرسة الحقوق)، وآخرها عهداً بدأنا بالسعي من أجل مصادر كبيرة لإيجاد مركز لآسيا.

«وإذ نمضي في تعزيز هذه الأجزاء من الجامعة والأجزاء الأخرى، المركّزة بشكل رئيسي على أمم أو أقاليم معينة، فإن لدينا الفرصة كذلك لنصل ما بينها على نحو أكبر، وبطريقة ستمكن أعضاء الهيئة التدريسية والطلاب من الاشتراك في، ودمج، استبصارات مستمدة من أقاليم وميادين دراسة مختلفة. إن التخطيطات المادية للمجمّع الدولي في أطوارها الأولى. وكذلك فإننا ننوي تأسيس مقر جديد لقسم السياسة أو الحكومة، ومجهودات جمع التبرعات ماضية على قدم وساق. إن الأمل هو إيجاد مركز ملء البصر وبامتياز للنشاطات من أجل الدراسات الدولية في هارفرد ـ مركز سيحفز على تفاعل أكبر، ومشروعات مشتركة أكثر، ومدخل أكثر تركيزاً للعديد من المشكلات ذات الاهتمام الحيوي المعاصر»[٣٥].

إن رؤية كهذه، مشفوعة بتخطيط واسع النطاق لإعادة تشكيل الدراسات الدولية في واحدة من أعرق الجامعات الأمريكية، والعالمية، ومدعومة بتمويل ضخم، تبعث لا محالة على القلق. وروجر أوين يشير إلى بعض عقابيلها، فيخص بالذكر منها ثلاثاً هي:

١ ـ تقلل هذه الرؤية عبر الإقليمية (Transregional)، أو العالمية (Global) من أهمية المعرفة الخاصة بمنطقة معينة، بل إنها تشكك حتى في وثاقة صلتها بأية دراسة تتجاوزها إلى مناطق أخرى من العالم.

٢ ـ تسعى هذه الرؤية إلى الانتقال من التوازن بين المحلي والعالمي إلى الإلحاح على تلك العلوم الاجتماعية (من مثل علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة) «حيث تدرس التطورات الدولية باللغات الانكليزية مستخدمة معطيات مستمدة من جداول إحصائية أكثر منها من مصادر اللغة المحلية[٣٦]. وبعبارة أخرى، إن مصادر اللغة المحلية والقائمة على دراسات مباشرة

---

(٣٥) انظر: Neil L. Rudenstine, «A Letter from the President,» *Harvard University Gazette* (17 October 1996), p. 5.

(٣٦) أوين، «عولمة الدراسات الاقليمية في امريكا...» ص ١٨.

وميدانية لواقع منطقة معينة لم تعد مهمة أهمية ما تقدمه المصادر المتوافرة باللغة الانكليزية أو الجداول الإحصائية التي تقدمها المنظمات الدولية. وبالتالي فإن أية دراسة ناجمة عن معطيات عالمية لن تعكس في نهاية المطاف إلا وجهة النظر العالمية، ولن تصب في النهاية إلا في مصلحة القوى المهيمنة على المشهد الدولي. وهكذا وبدل انفتاح المعرفة الإنسانية منهجياً على مصادر المعرفة المباشرة والأصلية، تنفتح على المصادر الثانوية وغير المباشرة أو المراجع. وبالطبع فإن معرفة كهذه لن تؤدي بأي حال من الأحوال إلى خدمة سكان المنطقة المدروسة، والرقي بمستويات حياتهم المختلفة بمقدار خدمتها للقوى المهيمنة على المشهد عبر الإقليمي، أو العالمي.

٣ ـ تطرح هذه الرؤية أخيراً جدول أعمال بحثياً معولماً[٣٧]، وقائماً على رؤية أمريكية[٣٨]، تهيمن على المنظور العالمي[٣٩]. وبعبارة أخرى، تنحدر المعرفة عن دراسة محكومة بهذه الرؤية إلى درك المركزية الأمريكية، وتستبعد كل الرؤى الأخرى. وفي ذلك تضييق خطير لأفق المعرفة الإنسانية، وانكفاء يتسم بالمفارقة في رؤية تزعم لنفسها منظوراً عالمياً في الوقت نفسه الذي تحدد منطلقاً إقليمياً مركزياً لها هو منظور القوة العظمى الوحيدة المهيمنة على مقدرات العالم.

* * *

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما السبيل إلى مواجهة توجه كهذا في دراسات الشرق الأوسط، وهل يكتفى بالإشارة إلى عقابيله، وهل يستغنى بتوضيح خطره عن القيام بأي عمل إيجابي لمواجهته؟

يقترح روجر أوين ثلاثة أمور تجب الإشارة إليها في مواجهة الرؤية العالمية:

ـ **أولها**، تأكيد أهمية المعرفة الخاصة القائمة على معطيات مستمدة من مقاربة مباشرة لواقع المنطقة المدروسة؛

ـ **وثانيها**، تأكيد أهمية التاريخ ودراسته في تناول أية منطقة، لأن في إغفاله تخلياً غير مفهوم، بل ربما كان تخلياً غبياً عن كنز لا يمكن تقدير غناه من الخبرة الإنسانية؛

ـ **وثالثها**، تأكيد التعاون بين الباحثين الداخليين المنحدرين من المنطقة المدروسة والباحثين الخارجيين المعنيين بها، وذلك بغرض طرح برنامج بديل «يلائم على نحو أكثر قرباً الشروط الشرق ـ أوسطية، ويتلاءم مع كيفية رؤية الشرق أوسطيين أنفسهم لصلاتهم بالقوى العالمية»[٤٠].

وهو لهذا يفكر في عقد مؤتمر يتداول المشاركون فيه كل ما يتصل بقضية عولمة دراسات الشرق الأوسط، ويبلورون فيه البديل الممكن للتوجه العالمي/الأمريكي في دراسة هذه المنطقة،

---

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٣٨) إذا ما نحّى المرء جانباً التعنت والغطرسة والرؤية العنصرية الإسرائيلية يجد أن العقبة الرئيسية في طريق تحقيق السلام العادل والشامل في منطقة الشرق الأوسط هي التصور الأمريكي (الذي تخالف فيه الولايات المتحدة سائر العالم بما فيه حلفاؤها) لعملية السلام ـ هذا التصور الذي يتجاهل كل معطيات التاريخ والواقع والتطلعات الإنسانية للأمة العربية بما فيها الشعب العربي الفلسطيني المغلوب على أمره.

(٣٩) لمزيد من الاطلاع على هذه النقطة ينصح بالعودة إلى: عبد الوهاب المسيري، «في الأمركة وتوابعها: أمركة العالم وعولمة أمريكا»، **الحياة**، ٢٨/١٠/١٩٩٦، ص ١٨.

(٤٠) أوين، المصدر نفسه، ص ١٨.

وهو مقترح ينبغي أن يظفر بالدعم والتعاون من قبل جميع المعنيين بدراسة الشرق الأوسط، ماضيه وحاضره ومستقبله. وأهم من ذلك كله ألا يكتفى بالقول، بل ينبغي أن يتخذ العمل وحده سبيلاً ناجعاً للمواجهة.

الداخليون والعولمة

ولكن ماذا على الداخليين (من العرب وغيرهم) أن يفعلوه؟ وما هي الخيارات المتاحة أمامهم إزاء هذه الدعوة إلى عولمة دراسات المنطقة؟ هل يكتفى بأخذ العلم، والتريث، أم تتم مواجهة هذه الدعوة مواجهة إيجابية تؤتي أكلها إسهاماً ملموساً يدفع بدراسات المنطقة في مسارها الصحيح، تحريراً لها من المركزية الأمريكية المتربصة بها. ولننظر على أي حال في الخيارين الرئيسيين: خيار التقاعس وخيار المواجهة.

أ ـ خيار التقاعس

وهو خيار مؤسس على أمرين: **أولهما** أن عولمة دراسة المنطقة شأن أمريكي خاص، وأن للولايات المتحدة الحق في أن توجه برامج التدريس والتدريب والبحث في هذه المنطقة، وفي أن تنظر إلى دورها في السياسة الدولية كما تشاء، وفي أن تعبئ إمكانات مجتمعها المادية والبشرية، ومؤسساته لتحقق مصالحها القريبة والبعيدة، **وثانيهما** أنه لا يصح في النهاية إلا الصحيح، وأنه ما دام التوجه نحو العولمة توجهاً غير سليم، فإنه لن يمضي وقت طويل حتى تستفيق الولايات المتحدة على حقيقة خطئها، وحقيقة أن منظورها منظور لا تشاركها فيه قوى أخرى مهمة، وأنها لا بد من أن تعود في نهاية المطاف إلى جادة الصواب في دراسة المناطق بعامة، ودراسة منطقة الشرق الأوسط بخاصة.

واعتقاد كهذا مريح، ولكن الحقيقة أنه لا يمكن تجاهل دعوة للعولمة كهذه عندما تصدر عن قوة عظمى بحجم الولايات المتحدة الأمريكية أدركتها عدوى أو حمى غطرسة القوة (The Arrogance of Power) التي تحدث عنها في يوم السيناتور ج. ويليام فولبرايت[٤١]، وحذر منها قومه، ولكن دون طائل فيما يبدو.

إن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع بما لديها من موارد مادية وبشرية أن تعيد توجيه دراسات المنطقة ليس في الولايات المتحدة وحدها وإنما في الوطن العربي أيضاً، وربما في سائر أنحاء العالم كذلك. وحسب المرء أنه يُدخل في حسبانه الإمكانات المادية الهائلة التي توضع تحت تصرف المؤسسات الحكومية الاتحادية، ومؤسسات الولايات المختلفة، والمؤسسات الحكومية الأمريكية في مختلف أنحاء العالم، وبخاصة منها تلك التي تستضيفها بلدان الشرق الأوسط، من جانب وزارتي الدفاع والخارجية وغيرهما، أو من جانب الوكالات الاتحادية المرتبطة بالبيت الأبيض أو بالكونغرس، كوكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة المعلومات الأمريكية، وغيرهما من المؤسسات، وما يرتبط بها من برامج دراسية أو تدريبية، ومشروعات بحث، وخطط نشر، وتنظيم مؤتمرات، وعقد ندوات وحلقات بحث وغيرها، أقول حسب المرء أن يُدخل كل هذا في حسبانه حتى يتبين مدى تأثير هذه الإمكانات في تحديد الأولويات، واختيار المشروعات، وإعداد

---

(٤١) انظر: James William Fulbright, *The Arrogance of Power* (Harmondsworth, Middlesex: Penguin Books, 1970).

البرامج، والنشاطات التي تشكل في مجموعها أدوات الإنتاج المعرفي عن المنطقة. ولا أظن أن أحداً يمكن أن يتوقع أن تقوم هذه المؤسسات بأية برامج أو مشاريع أو نشاطات تخرج عن الأولويات التي تحددها أو تستهدف أغراضاً مغايرة لتلك التي يفكر فيها موجهو هذه المؤسسات.

وثمة، بعد ذلك، المؤسسات الخاصة (فورد، وروكفلر وغيرهما)، ومراكز الأبحاث الخاصة التي تمولها شركات النفط، والصناعات الحربية، والمؤسسات المصرفية الكبرى، والتي لها أولوياتها ومنظوراتها وأهدافها الخاصة بها، فضلاً عن المؤسسة الجامعية الأمريكية التي تتمتع بأفضل التسهيلات المادية والبحثية.

ولا ننسى في النهاية أن الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها تشكل سوقاً كافية قادرة على استيعاب المنتجات المعرفية المادية والبشرية التي تنتجها مختلف المؤسسات من خلال برامجها المختلفة، المتصلة بالشرق، وبالتالي فإنها تستطيع تحقيق مستوى من الاكتفاء الذاتي لا يتوفر للمؤسسات النظيرة في الدول الأخرى. فثمة عدد كافٍ من الطلاب للانضمام إلى البرامج المتصلة بالدراسات الشرق الأوسطية؛ وثمة عدد كافٍ من الباحثين الذين يستطيعون تنفيذ هذه البرامج، وثمة أخيراً فرص عمل كافية لخريجي المؤسسات الجامعية الأمريكية المعنية بالشرق الأوسط وللخاضعين لأي برنامج تدريبي أو تأهيلي يتصل بالمنطقة.

وأخيراً، إذا ما تذكرنا شبكة العلاقات المعقدة والواسعة للمؤسسات الأمريكية الحكومية والخاصة خارج الولايات المتحدة، وفي مختلف دول الشرق الأوسط بخاصة، ودول العالم الأخرى بعامة، تبين لنا أن تجاهل التوجهات الأمريكية سيكون نوعاً من دفن الرأس في الرمال، وأن العقابيل، التي تنتظر أي دارس للشرق الأوسط سواء أكان من المنطقة أم من خارجها، من الخطورة بمكان بحيث تستدعي مواجهة جادة تستطيع احتواء التحرك الأمريكي.

ب ـ خيار المواجهة

وهو خيار صعب، ويتطلب جهداً جماعياً، وإخلاصاً لازباً لنصرة قضية المعرفة، ومثابرة تتطلع إلى مستقبل أفضل يليق بأمة قدمت الكثير للحضارة الإنسانية. وهذا الخيار يقوم على أمرين في غاية الأهمية:

ـ **أولهما** أنه لا سبيل إلى مقاومة العولمة إلا بانفتاح دراسات المنطقة على المنطقة المدروسة لغة، وتاريخاً، وثقافة، وحضارة، وواقعاً.

ـ **وثانيهما** كسر احتكار المعرفة، ونبذ دكتاتورية الإنتاج المعرفي، والإيمان بالشراكة المعرفية الحقة التي تفسح المجال أمام مختلف الروافد لإغناء مجرى المعرفة الإنسانية العام.

(١) انفتاح دراسات المنطقة على موضوعها

وأول ما ينبغي أن يشمل لغات المنطقة، وفي حال الوطن العربي، اللغة العربية كونها لغة الثقافة الإسلامية في الماضي، ولغة جميع القاطنين في هذا الوطن، حتى ولو كانوا من غير العرب، في الحاضر. صحيح أن عدد الذين يحسنون هذه اللغات من الخارجيين في ازدياد مستمر، ولكن الصحيح أيضاً أنه لا يكفي استخدامها:

ـ لغة حديث وتواصل من أجل القيام ببعض البحوث الميدانية؛ أو لغة اصطلاحية خاصة بفترة زمنية معينة، وبمنطقة محددة، وبمعرفة إنسانية مخصصة، لا تتعداها، تعنى بالتواصل مع نصوص محددة لا تتجاوزها، بل ينبغي أن تتخذ أداة رئيسية يومية للقراءة والبحث والتنقيب ومراكمة المعلومات، كما هو الشأن في الدراسات الخاصة بالثقافات الأخرى من مثل

الإنكليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو الروسية، أو الإيطالية، أو الإسبانية. إن لغات المنطقة لا تستعمل في الغالب إلا عند الضرورة للاطلاع على المصادر الرئيسية أو النصوص المدروسة فقط، بل إن الباحث الخارجي كثيراً ما يفضل اللجوء إلى المصادر المترجمة عن هذه اللغات، على علاتها، دون أن يحمل نفسه مشقة الرجوع إلى الأصول. وسلوك كهذا يؤدي عادة إلى تلقي صاحبه التأنيب والتقريع والتوجيه في أساليب البحث عندما يتعلق الموضوع باللغات الأوروبية المختلفة، أما عندما يتعلق الأمر بالدراسات الخاصة بالمنطقة العربية فالأمر مغتفر، وليس على صاحبه أن يخشى عواقبه.

وكذلك فإن من المهم جداً انفتاح دراسات المنطقة على تاريخها الغني والمعقد قبل الإسلام وبعده. فالحاضر، على أهميته، ليس غير تتويج لعملية معقدة من تقاطع التجارب الإنسانية والتي يشكل الماضي فيها عنصراً مهماً وحيوياً. وهو في المحصلة النهائية متصل بوشائج عضوية بمختلف جوانب هذا الماضي، وبخاصة في مجالي الثقافة والفنون.

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الثقافة الخاصة بالمنطقة والتي كانت حصيلة تفاعل غني ومعقد وطويل مع العديد من ثقافات العالم ـ هذه الثقافة التي تشكل سياقاً محدِّداً لفهم النصوص القديمة والحديثة والمعاصرة في أي ميدان من الميادين البحثية.

إن من الأهمية بمكان أن يدخل هذا الانفتاح المنشود على اللغة والتاريخ والثقافة والواقع المتصلة بالمنطقة المدروسة في بنية الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط: بحثاً، وإعداداً، وإنجازاً، وقبل ذلك تخطيطاً وبرمجة، بل إنه لا بد من اعتماده معياراً أساسياً في تقويم هذه الدراسات سواء أكانت منتجة من جانب الخارجيين، أم من جانب الداخليين، لأن الانفتاح المنشود هنا انفتاح معرفي غايته الاستقصاء والإحاطة والتعمق، وبالتالي الوصول إلى فهم أفضل لأي جانب من جوانب المنطقة المدروسة.

ومعنى هذا أن على دارسي منطقة الشرق الأوسط أن يتعاملوا مع موضوع دراستهم، كما يتعامل نظراؤهم مع الدراسات الخارجية الأخرى الخاصة بأجزاء العالم الأخرى وثقافاته. فهل يقبل، على سبيل المثال، من دارس متخصص بالدراسات الأمريكية (American Studies) من غير الأمريكيين، ألا يكون متقناً للغة الانكليزية (بصورتها الأمريكية هجاءً واستعمالاً ومصطلحاً) بدرجة إتقان أهلها لها، وقادراً على التأليف والمحاضرة والحديث والنقاش، بلغة التفاهم والبحث والتنقيب، واستعمالها أداة أولى في قراءة مصادره ومراجعه؟ وهل يُقبل منه أن يتحدث عن أي جانب من جوانب الثقافة الأمريكية، أو التاريخ الأمريكي، أو المجتمع الأمريكي، أو الأدب الأمريكي، استناداً إلى مصادر ومراجع بغير اللغة الانكليزية، أو مراجع ألفها باحثون غير أمريكيين حصراً، ودون الاطلاع على ما كتبه الأمريكيون أولاً واتخاذه المنطلق الرئيسي في فهمه لهذا الجانب؟ وهل يُحترم رأيه، ويُعتدّ به، ويُعَدّ خبيراً حقاً، إن لم يكن قد أقام فترة في أمريكا، أو لم ينغمس في الحياة الأمريكية على نحو من الأنحاء يستطيع معه من أن يتفهم التاريخ الأمريكي، أو الثقافة الأمريكية، أو الأدب الأمريكي، أو المجتمع الأمريكي؟

والأسئلة ذاتها يمكن أن ترد في الحديث عن الباحث في الدراسات الفرنسية وغيرها، ولكن من المؤسف حقاً أنها لا ترد ولا تثار عندما يتعلق الأمر بباحثي منطقة الشرق الأوسط، أو الدراسات العربية، أو الدراسات الإسلامية، وهي هنا أحوج ما تكون إلى أن تثار وتناقش ويلح عليها الإلحاح الذي قد يلفت الانتباه إلى ما تعانيه من قصور ونقص وضعف لا سبيل إلى تجاوزها إلا بهذا الانفتاح الذي نجده في الدراسات النظيرة.

إن أي متتبع لتأهيل دارسي منطقة الشرق الأوسط من الخارجيين، وبخاصة الأمريكيين منهم، يستطيع أن يتبين أنه، وعلى الرغم من التقدم الهائل الذي حققته الدراسات الشرق أوسطية على المستوى المنهجي، وبخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة، فإن كثرة لا بأس بها من دارسي هذه المنطقة من الخارجيين لا تتعدى معرفتهم بما يكتبون عنه دراسة متأخرة زمنياً للغة محلية أو أكثر، استغرقت سنوات محدودة في مرحلة الجامعة الأولى، أو في مرحلة الدراسات العليا(لا تتجاوز في الغالب ثلاث سنوات)؛ ودراسة لموضوع محدد في جانب من جوانب المعرفة الإنسانية المتصلة بالمنطقة (هو في الغالب موضوع الرسالة الجامعية التي ينال بها أحدهم الدرجة الجامعية الثانية أو الثالثة)؛ وزيارة محدودة للمنطقة. ومع ذلك فإن هؤلاء عندما يتحدثون عن المنطقة تراهم ينطلقون في حديثهم من ثقة مطلقة بمرجعيتهم. ويقدمون أنفسهم تقديم الخبير الموثوق بعلمه ومعرفته وخبرته وموضوعيته. بل إن بعضهم يدرس المنطقة في المعاهد والمؤسسات التعليمية والجامعية ويخرّج أجيالاً يغذيها بمعرفته الجزئية هذه.

(٢) نبذ دكتاتورية المعرفة

والأمر الثاني الذي ينبغي على دارسي أية منطقة، وبخاصة منطقة الشرق الأوسط، هو الإيمان بديمقراطية المعرفة الإنسانية. وبالتالي فإن من الأهمية بمكان أن ينبذ الباحث دكتاتورية المعرفة وراء ظهره، ويتطلع نحو نوع من الشراكة المعرفية مع الآخرين من أجل تحقيق تقدم حقيقي في أي ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية.

إن أي متمعن في طبيعة المعرفة الخاصة بأية منطقة من مناطق العالم سيتبين لا محالة أنها معرفة تعاون على إنتاجها نوعان من المنتجين:

(أ) منتجون من المنطقة نفسها ـ يعرفون لغتها، وثقافتها، وتاريخها، وتراثها، وحضارتها، وعلاقاتها بغيرها من المناطق عبر العصور؛ ويعيشون واقعها بجوانبه المشرقة والمظلمة، ويتفاعلون معه في جميع وجوه حياتهم؛ وهم أنفسهم نتاج ماضيها المتخلل لحاضرها، مثلما هم نتاج حاضرها، وأداة صنع مستقبلها.

(ب) ومنتجون من خارج المنطقة ـ دفعتهم ظروفهم الخاصة، أو ظروف مجتمعاتهم، وعلاقات هذه المجتمعات بهذه المنطقة، إلى أن ينخرطوا في عملية الإنتاج المعرفي المتصلة بها. وهؤلاء، كما يمكن لأي ملاحظ محايد موضوعي أن يتبين، كانوا، ولا يزالون، محكومين في كل ما ينتجون من معرفة بظروفهم الدنيوية، مثلما هم محكومون بطبيعة علاقات منطقتهم الخاصة بهذه المنطقة.

وبعبارة أخرى، إن المعرفة المتصلة بأية منطقة هي نتاج تعاون على صنعه داخليون وخارجيون يحمل كل منهم وجهة نظر خاصة بموقعه، ومنظوراً يقتصر عليه، وتوجهاً استلهمه من واقعه وعلاقاته، ومن الأهمية بمكان أن تتكامل هذه المعرفة بين الداخليين والخارجيين من أجل فهم أعمق وأكثر شمولية وإحاطة للمنطقه ككل. ومن الضروري لذلك ألا يدّعي الخارجيون أنهم وحدهم، وبسبب من خارجيتهم وتقدمهم المعرفي في باقي العلوم، يمتلكون مفاتيح هذه المعرفة، مثلما لا يستطيع أن يدّعي الداخليون أنهم وحدهم، وبسبب من داخليتهم ومعرفتهم الحميمة بموضوع بحثهم، سدنة هذه المعرفة.

لقد عانت الدراسات الاستشراقية ردحاً طويلاً من الزمن ما يسمى بالمركزية الأوروبية (Eurocentrism) في زمن النهوض الإمبريالي، وما زالت تعاني اليوم بقايا هذه المركزية الأوروبية ورواسبها في الدراسات الاقليمية الراهنة. ولا أظن أن من الحكمة التمسك بهذه المركزية، أو العودة إليها، أو استبدال المركزية الأمريكية بها، لأن هذا يشكل في حقيقة الأمر

انتكاسة للدراسات الشرق أوسطية التي حاول إدوارد سعيد، وغيره من نقاد الاستشراق والداخليين والخارجيين (أنور عبد الملك، وعبد اللطيف الطيباوي، ورنا قباني، وحليم بركات، وغسان سلامة، وروجر أوين، وبريان تيرنر، ومكسيم رودنسون وغيرهم)[٤٢]، أن ينبهوا لخطورة ما ترزح تحته من وطأة الأمراض التي لحقتها بسبب المناخ الإمبريالي الذي هيمن على أجوائها، وبخاصة في القرنين الماضيين. لقد شهد ربع القرن الأخير تحولات إيجابية مهمة في التقليد الثقافي الذي ندعوه بالاستشراق. وربما كان من أهم هذه التحولات سعي العديد من المخلصين من الداخليين والخارجيين إلى إشاعة روح النقد في هذا التقليد بهدف تخليصه مما أمكن من مركزيته الأوروبية وحوافزه الايديولوجية والدنيوية التي بثتها فيه الإمبريالية الغربية في المرحلة الاستعمارية. إن من المهم جداً المضي قدماً في هذا النقد إلى أن يتحقق خلق البديل المنشود، والذي تمثل دراسات المنطقة مجرد خطوة في الطريق نحوه. ولا بد لهذه الخطوة من أن تتبعها خطوات. وعولمة دراسات المنطقة أو أمركتها (Americanization) انتكاسة خطيرة، لأنها تمثل تراجعاً عن هذه التحولات الإيجابية التي تفاءل الناس بظهورها في حقل دراسات الشرق الأوسط.

إن على دعاة العولمة أن يتذكروا أن الشراكة المعرفية في دراسات الشرق الأوسط ضرورة حيوية من أجل النهوض بهذه الدراسات، لأنها تغني فهمنا لها وتعمقه، وبالتالي تستطيع أن تسهم وبحق في الارتقاء بأهل المنطقة من جهة، وفي تعزيز التعاون والتفاهم بين الشعوب والأمم من جهة أخرى.

ولننظر، على أي حال، في المسهمين في هذه الشراكة المعرفية، وفي مواقعهم، وفي منظوراتهم، وفي ما يمكنهم أن يسهموا به. ثمة، بدايةً، الداخليون الذين يمثلون أيضاً موضوع (Subject) الدراسات الشرق أوسطية، وبالتالي يمكن أن يُعدوا بحق الشريك الأساسي في أي مشروع بحثي يتصل بالمنطقة، تؤهلهم لذلك معرفتهم الحميمة بماضيها وحاضرها، وتمثلهم العميق لتراثها، وإسهامهم في صنع تاريخها، وفهمهم الأمثل للغتها، وسعيهم المشروع لصنع مستقبلها.

وثمة بعد ذلك الخارجيون الذين يقع في رأس قائمتهم الأوروبيون[٤٣]، لأنهم الجار الأقرب والأكثر حميمية لمنطقة الشرق الأوسط، بتفاعله العميق والمتعدد الوجوه والعريق مع أهلها، فضلاً عن تقاليده العريقة في دراستها، والتي تغذى بها جلّ دارسي المنطقة من الخارجيين من باقي مناطق العالم، وبخاصة في أمريكا الشمالية، ونفر غير قليل من الداخليين الذين وفدوا إلى أوروبا في القرنين الماضيين، ليأتوا أهلهم من نارها بقبس. ولا ننسى أخيراً تنامي الحضور الإسلامي في أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين وتأثيره العميق في المجتمعات الأوروبية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً ـ هذا التنامي الذي يحفز الكثير من

---

(٤٢) من أجل مزيد من التفاصيل حول نقد الداخليين والخارجيين للاستشراق (وهو من التحولات الإيجابية التي شهدها في العقود الأخيرة)، انظر: عبد النبي اصطيف، «نحن والاستشراق: تحولات إيجابية،» **المعرفة**، السنة ٢٩، العدد ٣٢٧ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠)، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ و١٧٢ ـ ١٧٣.

(٤٣) جل الكتب التي أرّخت للاستشراق عنيت بشكل خاص بالإسهام الأوروبي، ويمكن للمرء أن يشير هنا إلى كتب إدوارد سعيد ومكسيم رودنسون وريمون شقاب ويوهان فوك وغيرهم، وربما تحسن العودة إلى مقالة المستشرق الهولندي المعروف واردنبرغ: Waardenburg, «Mustashrikūn,» in: The *Encyclopaedia of Islam*, new edition (Leiden E. J. Brill, 1992), vol. 7, fascs. 125-126, pp. 735-753.

الدراسات الأوروبية الراهنة عن علاقات الإسلام بالقارة الأوروبية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وفي المجالات كافة.

وهناك الآسيويون[٤٤] وعلاقاتهم التاريخية الطويلة، التي عززتها علاقات اقتصادية وتجارية وثقافية واجتماعية مستمرة بينهم وبين منطقة الشرق الأوسط، تجعل منهم شريكاً مهماً أيضاً في إنتاج هذه المعرفة وبخاصة في العصر الحاضر الذي يشهد تدفقاً كبيراً من العمالة الآسيوية إلى المنطقة، واستثمارات متبادلة بينها وبين منطقة جنوب شرقي آسيا (تشمل حتى جمهورية الصين الشعبية)، وانتشاراً ملحوظاً للدين الإسلامي فيها، فضلاً عن تنامي المبادلات التجارية. ومن الطبيعي أن يكون للمعرفة التي ينتجها الآسيويون عن المنطقة (وبخاصة اليابانيون[٤٥] الذين تنامى اهتمامهم بالمنطقة تنامياً ملحوظاً في ربع القرن الأخير) أهميتها الخاصة، ورؤاها الخاصة، التي ستغني لا محالة فهمنا لهذه المنطقة وترتقي بدراستنا لها.

ولا ننسى الجار الأقرب الآخر، وهم الأفريقيون[٤٦] الذين يتمتعون بصلات تاريخية خاصة بالمنطقة، والذين بدأوا يسهمون على خفر في دراسات المنطقة محفوزين بطبيعة صلاتهم المعقدة بها.

وفضلاً عن كل أولئك ثمة الأوستراليون[٤٧] الذين تربطهم بالمنطقة أواصر مهمة أهمها الجاليات العربية التي تؤدي دوراً بارزاً في الحياة الثقافية هناك[٤٨]، إلى جانب المصالح الاقتصادية التي حفزت على تطوير العلاقات الأوسترالية ـ العربية، وبخاصة في العقدين الأخيرين.

أما الشريك الأمريكي اللاتيني فإن له أيضاً صلاته المتميزة في المنطقة، وإلى جانب العلاقات التاريخية المتمثلة بالماضي المشترك الممتد نحواً من ثمانية قرون في شبه الجزيرة الإيبيرية، ثمة الهجرات العربية إلى مختلف دول أمريكا اللاتينية (الجنوبية والوسطى)،

---

(٤٤) بغرض الاطلاع على الدراسات الشرق أوسطية في الصين، انظر: Ke Ti, «China's Studies of the Middle East,» *Middle East Studies Association Bulletin*, vol. 21, no. 1 (July 1987), pp. 9-14; Dru C. Gladney, «The Study of Islam in China: Some Recent Research,» *Middle East Studies Association Bulletin*, vol. 27, no. 1 (1993), pp. 24-30.

وحول كوريا الجنوبية، انظر: Young Yole Rew, «The Present Situation of Islamic and Middle Eastern Studies in Korea (South),» *Middle East Studies Association Bulletin*, vol. 25, no. 2 (December 1991), pp. 181-183.

(٤٥) بغرض الاطلاع على الدراسات الشرق أوسطية في اليابان، انظر: محمد عضيمة، «الجمعية اليابانية للدراسات الشرقية في ندوتها السنوية، أخو الامبراطور السابق يحاضر في الآشوريين ولجان للإسلاميات»، الحياة، ١٩٩١/١٢/٦، ص ١٦؛ Kunio Katakura and Motoko Katakura, «Middle Eastern Studies in 1980's Japan-Focusing on the Establishment of the Japan Association for Middle East Studies,» in: Kunio Katakura and Motoko Katakura, *Japan and the Middle East* (Tokyo: Middle East Institute of Japan, 1991), pp. 186-202, and Toru Miura, «Islamic and Middle Eastern Studies in Japan,» *Arab World in Scientific Research* (Institut du Monde Arabe, Paris), no. 5 (automne 1995), pp. 63-72.

(٤٦) انظر على سبيل المثال: Tamara Sonn, «Middle East and Islamic Studies in South Africa,» *Middle East Studies Association Bulletin*, vol. 28, no. 1 (July 1994), pp. 14-17.

(٤٧) انظر على سبيل المثال: A. H. Johns, «Hopes and Frustrations: Islamic and Middle Eastern Studies in Australia,» *Middle East Studies Association Bulletin*, vol. 25, no. 2 (December 1991), pp. 173-180.

(٤٨) من أبرز الأسماء المتألقة هناك ديفيد معلوف وسمر عطار وغيرهما.

ونشاطات الجالية العربية الفعالة في مختلف وجوه الحياة في هذه الدول وبخاصة في مجالي الاقتصاد والسياسة، والعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية المتنامية بين دول جنوبي أمريكا ووسطها وبين الدول العربية المختلفة بشكل خاص، وبدول منطقة الشرق الأوسط بشكل عام[٤٩]، والتي باتت تحفز اهتماماً متنامياً بإنتاج المعرفة المتصلة بالشرق الأوسط في أمريكا اللاتينية.

وأخيراً هناك الشريك الأمريكي الشمالي المتطلع أبداً، في ما يبدو، إلى تسنم الصدارة في كل الميادين، والساعي باستمرار إلى الهيمنة عليها، والتحكم بمقدراتها. لقد تمت الإشارة فيما تقدم إلى عمق العلاقات التاريخية التي تربط الشمال الأمريكي بالشرق الأوسط. وبالطبع ليس ثمة من يماري اليوم في فاعلية الحضور الأمريكي ودوره في تحديد حاضر المنطقة وربما مستقبلها، ولكن السؤال المهم الذي ينبغي طرحه هو هل يعطي هذا الوجود المتعاظم للأمريكيين في المنطقة العربية الحق لهم في التفرد، أو في الهيمنة على دراسات الشرق الأوسط وتوجيهها الوجهة التي تخدم المصالح الأمريكية وحدها؟

صحيح أن الولايات المتحدة تملك من البنية التحتية، والإمكانات المادية، والتسهيلات البحثية، والموارد المالية والبشرية ما تستطيع أن تنفذ، معه، جل ما تتخذه من قرارات، وما تعتزم تنفيذه من مشاريع. ولكن ذلك لن يكون سهلاً أو ممكناً مع وجود معارضة قوية من جانب شركاء المعرفة الآخرين الذين قد لا يشاركون المنتج الأمريكي الكثير من رؤاه وتطلعاته، بَلْهَ منظوره المعولم الخاص، الذي ليس في واقع الأمر أكثر من تبنٍّ مقنّع لنوع من المركزية الأمريكية الشمالية سيكون مصدر قلق ونفور وتبرم، وربما مناهضة جادة، من قبل الجميع.

هدفان أساسيان

هناك هدفان حيويان ينبغي أن يحفزا العمل في حقل دراسات المنطقة، ويوجها برامج هذا العمل وخططه وإجراءاته في مراكز إنتاج المعرفة الخاصة بكل منطقة، سواء أكانت هذه المراكز في داخل هذه المنطقة أم في خارجها. وهذان الهدفان هما:

أ ـ توظيف المعرفة الخاصة بالمنطقة للارتقاء بإنسان هذه المنطقة في جميع وجوه حياته؛

ب ـ توظيف المعرفة الخاصة بالمناطق المختلفة في عملية التفاهم بين المناطق والشعوب والأمم المختلفة.

أ ـ هدف الارتقاء بإنسان المنطقة المدروسة: الداعون إلى أن تكون المعرفة في سبيل المعرفة، أو في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وفي كل مجتمع إنساني، كثر والحمد لله، ولكننا إذا ما تذكرنا أن منتج المعرفة إنسان، ومستهلكها إنسان، وموضوعها الإنسان في صلته بمحيطه، فليس ثمة ما يمنع أن نستهدف بهذه المعرفة خير الإنسان وتقدمه وبصرف النظر عن لونه وجنسه وموطنه وطبقته وعمره ولغته وقوميته. ومعنى هذا أن المعرفة المنتجة عن منطقة ما يجب أن توضع في خدمة إنسان هذه المنطقة أولاً (وفي خدمة الإنسان في المناطق الأخرى ثانياً) وليس في خدمة عملية كبح تطلعاته المشروعة نحو حياة أفضل، ومستقبل أفضل. إن الجهد الإنساني والمصادر البشرية والمادية التي توظف في إنتاج المعرفة الخاصة بمنطقة ما ينبغي أن

---

(٤٩) انظر: Damian J. Fernandez, ed., *Central America and the Middle East: The Internationalization of the Crises* (Miami: Florida International University Press, 1990), and Fehmy Saddy, ed., *Arab-Latin American Relations: Energy, Trade and Investment* (New Brunswick, USA: Transaction Books, 1983).

تصب جميعها في خدمة الإنسان، وليس من المعقول أن توظف من أجل التحكم بمقدراته، أو السيطرة عليه، واستنفاد خيراته(٥٠).

لقد وظفت جلّ المعرفة الخاصة بمنطقة ما، والتي ينتجها دارسون من مناطق أخرى، في الغالب، في خدمة المواجهة بين هذه المنطقة من جهة، وواحدة أو أكثر من المناطق الأخرى، واستهدفت تسهيل عمليات الهيمنة. وإذا كان المرء لا يستطيع أن ينسى الماضي، فإنه من جهة أخرى، يستطيع، بل يجب عليه، أن يستنهض إرادة التغيير والتفكير في توظيف المعرفة التي ينتجها للرقي بأوضاع موضوعها من جميع النواحي، والإسهام في تقدمه على النحو الذي يليق بالكرامة الإنسانية، وإلا فإن هذه المعرفة تغدو وبالاً على الجنس البشري، تُستخدم في فترة ما ضد منطقة ما، وتستخدم في فترة أخرى ضد منطقة أخرى، وهكذا تتداول المناطق المعرفة (وتتداول معها القوة والسلطان)، ولا تكون الحصيلة في خاتمة المطاف إلا رداً متنقلاً يمكن أن يشمل الإنسانية بكاملها.

ب ـ هدف تعزيز التفاهم بين المناطق والشعوب والأمم: إن من المهم حقاً الإيمان بأن الاختلاف والتنوع سبيلان للتعارف وليس للاستبعاد، أو للاستعباد المتبادل. وهكذا فإن المعرفة الإنسانية الخاصة بمنطقة ما، والتي ينتجها الأنا، أو الآخر، تصبح أداة مهمة في عملية فهم كل منهما للآخر، أو للفهم المتبادل. وإنه لمن المؤسف حقاً أن الدراسات الاستشراقية التي أنتجتها القرون الخالية، ودراسات المنطقة التي أنتجتها العقود الأخيرة، قد ظلت، وفي غالبيتها، مجرد أداة في نشر سوء الفهم بين الشرق والغرب. ولم تسهم على النحو المرجو في تعزيز التفاهم بينهما. وبالتالي فبدل أن تنتقل المعرفة الخاصة بالآخر بالعلاقات ما بين الأمم والشعوب والدول والثقافات والمناطق من المواجهة إلى التعاون، غذت هذه المعرفة المواجهة بين هؤلاء بالكثير من سوء الفهم، والأهواء المغرضة، والأفكار المسبقة، والرواسم، والكراهية، وروح التنازع والخلاف، والتفكير في احتواء الآخر وتدجينه والهيمنة عليه، إن لم يكن في تطهير هذا الكون منه.

لقد بتنا، ونحن على مشارف الألف الثالثة بعد الميلاد، نتحدث عن صدام الحضارات وعن هيمنة واحدة منها وسيادتها في سائر مناطق العالم على حساب الحضارات الأخرى، بدل الحديث عن تعايش الحضارات، وتكاملها في ما بينها، واغتنائها بعضها ببعض. إن من الفاجع حقاً أن نفكر، ونحن على أبواب الألف الثالثة، في تدجين الآخر، بدل فهمه؛ وفي السيطرة عليه بدل التعاون معه؛ وفي احتوائه بدل التعامل معه على قدم المساواة؛ وفي تشكيله على النحو الذي نرغب فيه بدل قبوله على النحو الذي هو عليه؛ وفي فرض معرفتنا عليه بدل التفكير في اكتساب ما لديه من معرفة.

إن المفارقة تكمن في أن تؤدي ديمقراطيتنا المزعومة، والتعددية الثقافية التي ندعو إليها بنفاق مصقول، والتسامح الذي ندّعيه، وسعة الصدر التي نفخر بأنها ستفسح المجال للهامشي والثانوي، إلى هيمنة للأنا تسوغ نفسها بالقوة، قوة المعرفة أحياناً قليلة، وقوة السيف في غالب الأحيان □

---

(٥٠) انظر ما كتبه خوان غويتسولو عن الاستخدام الاناني للشرق وأهله من جانب الغرب. يقول في معرض حديثه عن الكتاب الأوروبيين الذين استلهموا الشرق في كتاباتهم من أمثال لوب، وشكسبير، وفلوبير، ونرڤال، ولوتي، وت. إ. لورنس، وأندريه جيد وغيرهم: «ليس ثمة مثال واحد تعمل فيه الأفكار، والرؤى، والاكتشافات، والصور من أجل منفعة المخلوقات البشرية التي تستثيرها، وهي لا تطور حتى أي نوع من الإنشاء الصادق عنها». Juan Goytisolo, *Saracen Chronicles: A Selection of Literary Essays,* translated by Helen Lane (London: Quartet Books, 1992), p. 214.